# التربية على الحدود، التربيـة على الحيـاة

سعيدة بنكيران

**قد نتساءل يوماً عن السبب الذي يجعلنا ننأى عن الإساءة إلى شخص ما كان بإمكاننا الإساءة إليه دون أن يعلم أحد، ولكننا لم نسمح لأنفسنا بفعل ذلك، ربما لأنهم أحسنوا تربيتنا وتهذيبنا بقولهم لنا في يوم من الأيام ءراه يلا درتي هاد الحاجة الله غادي يفلسك ويمسخك» (إذا قمت بهذا الأمر فإن الله سيعاقبك ويمسخك) أو ءغادي يضحكوا عليك الناس» (وسوف يضحك عليك الناس) أو ءماغاديش تكون أحسن واحد فدراري ديال العائلة والجيران» (ولن تكون أحسن طفل من ضمن أطفال العائلة والجيران) أو بكل بساطة ءغادي نقتلك بالعصا وما غاديش تبقا ولدي غادي نجيب واحد اخور يكون ولدي» (سوف أقتلك بالعصا ولن تظل ابناً لي وسوف آتي بولد آخر ليصبح ولدي).**

ولأننا كنا صغاراً نستقي الحقيقة من عيون الآخرين وكلامهم، ونسقيها بمخيلتها ليتضخم حقها وأحقيتها في رسم ملامح شخصياتنا، ارتجفت أجسادنا عند تفكيرنا بأننا قد نتحول يوماً إلى قردة، أو نصبح محط سخرية للناس، وحرصاً منا على أن نكون أحسن من غيرنا، بل وأفضلهم، ونتجنب صفعة قد تلتصق بواسطتها يد كبيرة على وجوهنا البريئة الصغيرة فتظل ملتصقة إلى الأبد، ولكي نضمن بأن لا أحد يمكنه أن يقصينا ويحل مكاننا، لم نفعل شيئاً قبيحاً للآخر الذي لعبنا معه يوماً، أو تقاسمنا معه لحظة الانتشاء بحلوى. لم نسئ إليه لأننا مهذبون، وآباؤنا وأمهاتنا أحسنوا تربيتنا، ومن العار أن نخذلهم. ومن يدري ربما إن نحن خذلناهم أسقطونا من دفتر الحالة المدنية دون علمنا، ليضعوا بدل حروف أسمائنا حروفاً لم تتعود أناملنا الصغيرة على كتابتها.

كثير منا لم يسئ يوماً إلى شخص ما لأنه يحبه، لأنه أبوه أو أمه أو أخوه أو زوجته أو صديقه، ولكن من منا لم يسئ إلى شخص ما لأنه يحبه على الرغم أنه لا يعرفه، لا يعرف اسمه أو عنوانه أو سنه أو قصته أو انتصاراته وهزائمه، إحباطاته وأحلامه، فضائله وعيوبه. يحزنني أن أرى آباء وأمهات كثيرون يحرصون على تربية أبنائهم أحسن تربية دون أن أشاهد على قناة مغربية برنامجاً يساءل ويقارب بشكل جديد ومختلف هذه «الأحسن تربية»، ويعيد النظر فيها. فنظل إلى الأبد نظن بأن القواعد التي يجب أن تسري عليها حياة أطفالنا سطرت بشكل نهائي منذ اللحظة التي اعتقدنا فيها أن المفهوم الوحيد للتربية هو ذلك الذي اكتسبناه وسرنا على خطاه دون مشيئتنا، وبالتالي فهو الذي يجب أن نقتدي به إن تعلق الأمر بتربية أو توجيه أو تفكير في حياة شخصية ما زالت جد هشة، ولديها قدرة هائلة على امتصاص ما يقدم لها من المحيط الخارجي، إنها شخصية طفل تحتاج إلى تربية لكي تنضج وتتفتح وتنمو ولكن عن أية تربية نتحدث؟!

أهي التربية التي تصنع منا نسخاً طبق الأصل لبعضنا البعض، وتحرص كل الحرص على استلابنا فتمنع ذلك البريق الذي يضفي على كل واحد منا سحراً خاصاً به من الانسياب في مجرى الحياة، لتنساب بدورها طاقاتنا الخفية والمختلفة، وتعبر عن نفسها بشكل يقربنا من أنفسنا بدل أن يبعدنا عنها؟! أم هي التربية التي تساعد الطفل على رسم الحدود الفاصلة بينه وبين الآخر؛ سواء أكان هذا الآخر أمه أم أباه أم أصدقاءه أم أي إنسان يمكن له أن يلتقي به في هذا العالم؟

إنها التربية التي تدفع الطفل إلى مساءلة ذاته والعالم من حوله، والتفكير بإبداع وإنسانية في القضايا التي تشكل بالنسبة إليه المحور الذي تدور حوله أيامه واهتماماته ابتداءً من اليوم الذي يكون فيه كل تفكيره مرتكزاً على اللعبة التي سيقع عليها اختياره يوم العيد، إلى اليوم الذي يجد فيه نفسه ككل الناس في ملتقى الطرق التي تفصل بينه وبين التفاهة والبهلوانية، وبين القدرة على امتلاك حس نقدي ونظرة عميقة اتجاه ما يريد أن يفعله بحياته، وما يريد أن يفعله مع، وبالأناس الذين يشاركونه هذه الحياة. إنها التربية التي تسمح له بالإحساس بالحب والأمان والانتماء إلى أسرة، دون أن تسمح له باقتسام غرفة النوم ليلاً مع أبويه، لكي تشجعه على إقامة الحدود الفاصلة بين علاقته بوالديه كوالدين وبين علاقته بهما كزوجين لديهما حياتهما الحميمية التي تجعل دورهما داخل البيت غير منحصر في دور الأب والأم، وإنما دور الزوج والزوجة أيضاً.

فمثلما يشعر هذا الكائن الصغير بالفرحة حينما يحضنه أبوه أو أمه ويقبلانه ويهتمان بما يمكن أن يدخل السعادة إلى قلبه الصغير، مثلما هو بحاجة أيضاً إلى الشعور بالإحباط، إذا ما أراد النوم على فراش واحد معهما، أو انتزاع لعبة من يد طفل آخر، أو القيام بشيء قد يضره أو يضر بالآخرين.

ولكن ما هي الطريقة التي نحبط بها أبناءنا؟ هل الوهم هو الذي يحبطهم؟ فإذا ما انقشع ضبابه يوماً عن أعينهم فعلوا كل ما يرغبون فيه، أم هو مبدأ إنساني ذاك الذي يقف حاجزاً بينهم وبين رغباتهم المدمرة؟ ماذا عن طفل قيل له حين سرق قطعة حلوى إنه لو أعاد فعل ذلك مرة أخرى سيزوره الغول ليلاً ليبتلعه بشراسة، وحينما كبر الطفل اكتشف أن لا وجود لشيء اسمه الغول. وفي يوم ما أصبح الطفل صاحب شركة ضخمة، وإذا به ينهب مال المساكين والمحتاجين ويستغل منصبه للقيام بأبشع الأمور التي تعتبر بالنسبة إليه هي الشيء الوحيد الذي يجب القيام به. «ولمَ لا ما دام الغول غير موجود؟!».

إن الإحباط الذي يشعر به الطفل حينما يرغب في القيام بشيء لا يصح القيام به، يساعده على التنازل عن التمركز حول الذات وتقبل الحياة كما هي بكل ما يمكنه أن يستمتع به فيها، وبكل ما يمكنه العزوف عنه، لأنه قد يؤذيه ويؤذي المحيطين به. فالإحباط إذن يرسم الحدود التي لا ينبغي للطفل تجاوزها لكي يعيش مع الآخر دون أن يقصيه أو يحطمه. إنه الإحباط الذي يدفع الشخصية إلى اكتساب الأدوات الصالحة والسليمة لمساءلة العالم من حولها وخلق الفضاء المناسب الذي يمكن للذات أن تتحرك فيه دون أن تفقد خصوصيتها وتميزها وحبها لنفسها ولغيرها وقدرتها على الأخذ الذي يغني طاقاتها والعطاء الذي يعزز وجودها وانتماءها الإنسانيين.

فالإحباط يبني ويجمل ويهذب ويأنسن العلاقة بالآخر إذا لم يكن الإحساس به ناتجاً عن اعتقاد خاطئ بأن رغبتنا أحبطت لأن غولاً قد يبتلعنا، أو يداً قد تصفعنا أو لعنة ما سوف تلحق بنا.

كثير منا يرى أن الطفل كائن غبي عاجز عن استيعاب بعض المبادئ الكبرى التي إن لم يلتزم بها الكون دمر علي الفور. ولأن الطفل جزء من الكون وينتمي إليه يمكنه أن يوظف مبدأ من هذه المبادئ في مواقف عدة يعيشها ويحسها.

فإذا سألنا يوماً عن السبب الذي يجعل الشمس معلقة على الدوام في السماء، وعن السبب الذي يمنعها من الالتصاق بالأرض، أدرنا وجوهنا عنه، أو أكدنا له أن هذه الأشياء لا تعنيه، أو ربما قد يفهمها حينما يكبر.

ولكن ماذا لو قلنا له إن الشمس تقطن السماء لأن موقعها هناك يمنعها من تدمير نفسها وتدميرنا نحن البشر إن اقتربت منا أكثر في يوم من الأيام أو ابتعدت أكثر، وبأننا نحتاج إلى دفئها ونحتاج إلى غيابها مثلما نحتاج إلى حضورها. نحتاج إلى دفئها لكي لا نموت برداً وإلى غيابها لكي نستمتع بالليل وسكونه وبنجومه، ونحتاج إلى حضورها لنتمتع بالضوء الذي يتسلل منها إلينا، وبفيتامين (D) الذي يقوي عظامنا، ولأشعتها التي تلعب دوراً مهماً في نمو النباتات والأطعمة التي نتناولها، والتي لا يمكننا الاستغناء عنها.

ماذا لو قلنا له إن الشمس لا تلتصق بالأرض لأنها قادرة على الالتزام بحدودها التي لا يمكنها أن تتجاوزها ولديها مكانها الخاص بها ولا يمكنها الاعتداء على الآخرين واحتلال مكانهم، كأن تحاول الالتصاق بالأرض لتحل محلها مثلاً. فالشمس جزء من الكون وبمحافظتها على حدودها فيه تساهم في الحفاظ على نفسها والحفاظ عليه.

إن ما سبق ذكره، لمثال بسيط لإجابة من بين آلاف الإجابات التي يمكن أن يتلقاها طفل يطرح سؤالاً على والديه في حالة من الحيرة والحاجة إلى تحقيق الرغبة في السؤال والمعرفة، إنه يطرح سؤالاً محدداً ودقيقاً لكن إجابتنا يمكن لها أن تشجعه وتساعده على الوعي والانفتاح على أشياء أخرى أو ربما مبادئ كبرى.

فمن الحديث عن الشمس والسماء والأرض، يمكننا الانتقال إلى الحديث عن الليل وهدوئه، وعن فيتامين (D) وأهميته، إلى أن نصل إلى الحديث عن ضرورة احترام كل منا لحدوده، لكي نحافظ على بعضنا البعض، ونعيش مع بعضنا البعض، لأن في الالتزام بهذه الحدود اعترافاً بالغير واقتناعاً بحقه في الاستمتاع بالحياة مثلما نتمتع نحن بهذا الحق نفسه.

**سعيدة بنكيران**
**أخصائية ومعالجة نفسانية- المغرب**

طفلة ترسم خلال إحدى فعاليات روضة مدرسة الفرندز.